المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة
ISESCO إيسيسكو

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

حركة الإصلاح في العصر الحديث

عبدالرحمن الكواكبي نموذجاً

تحرير
زكي علي العوضي

دار الرازي

حركة الإصلاح
في العصر الحديث

عبدالرحمن الكواكبي نموذجًا

المؤلف ومن هو في حـكمه:	زكي علي العوضي
عنـــــوان الكتـــاب:	حركة الإصلاح في العصر الحديث: عبدالرحمن الكواكبي نموذجاً
بـــــيانات النشـــــر:	الأردن – عمّان – دار الرازي للطباعة والنشر – المعهد العالمي للفكر الإسلامي

جميع حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة

Copyright ©
All right reserved

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

حركة الإصلاح
في العصر الحديث

عبدالرحمن الكواكبي نموذجاً

وقائع الندوة التي عقدت في المركز الثقافي الملكي في عمان،
بتاريخ ٨-١٠ شعبان ١٤٢٣هـ، الموافق ١٥-١٧ أكتوبر ٢٠٠٢م.

تحرير
زكي علي العوضي

دَارُالرَّازِي

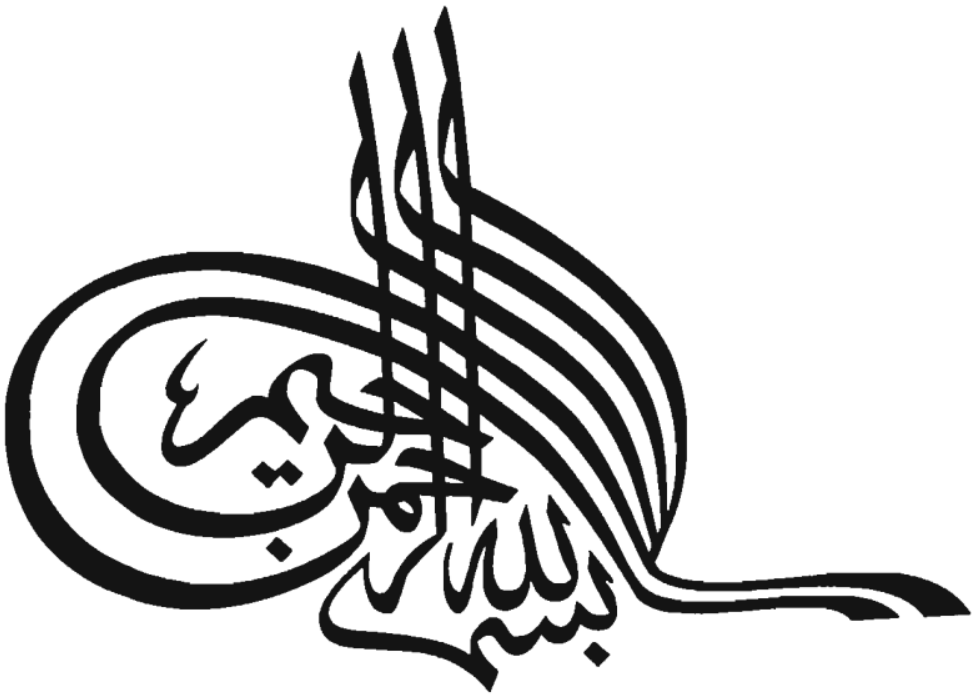
بسم الله الرحمن الرحيم

محتويـات الكتـاب

مقدمة التحرير ٧

الجلسة الافتتاحية

- كلمة أمين عام وزارة الثقافة: د. أحمد الطراونة ١١
-كلمة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة: د. محمد هاشم فالوقي ١٢
-كلمة المعهد العالمي للفكر الإسلامي: أ.د. إسحاق الفرحان ١٥
-كلمة مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية: د. غانم جواد ١٧
-كلمة حفيد الكواكبي: سعد زغلول الكواكبي ٢٠

الجلسة الأولى

-جوانب من السيرة الذاتية للكواكبي: سعد زغلول الكواكبي ٢١
- رؤية الإيسيسكو إلى إصلاح الأمة في العصر الحديث:
د. عبد العزيز بن عثمان التويجري ٣٨
-الفكر الإصلاحي عند الشيخ عبد الرحمن الكواكبي أ. زكي ميلاد ٥٠
- تعقيبات ومناقشات الجلسة الأولى ٧٥

الجلسة الثانية

- رؤية الكواكبي للإصلاح السياسي وموقفه من الخلافة العثمانية والتقاؤه أو تقاطعه مع بعض معاصريه: د. أحمد الشوابكة ٧٩
-الدين والإصلاح في فكر عبد الرحمن الكواكبي: أ.د. أسعد السحمراني ٨٦
- الإصلاحات الدينية والسياسية والوطنية في فكر الكواكبي:
د. محمد جمال طحّان
..... ١٠٥
- تعقيبات ومناقشات الجلسة الثانية ١٢٥

الجلسة الثالثة

- السمات التاريخية للعالم وواقع الأمة العربية الإسلامية وانعكاساتها على شخصية الكواكبي ورؤيته الإصلاحية د. مصطفى العساف ١٣١
- الإصلاح الاجتماعي والتربوي عند الكواكبي: محمد قجة ١٣٩

- عبد الرحمن الكواكبي: مصلح إسلامي أم داعية قومي عروبي علماني؟
محمد عبد الجبار ١٦١
- تعقيبات الجلسة الثالثة ١٧٨

الجلسة الرابعة

- خصائص واقع العالم وواقع الأمة في القرن التاسع عشر وانعكاساتها على شخصية الكواكبي ورؤيته الإصلاحية ومدى تأثير ذلك بظروف العالم آنذاك: د. سهيلة الريماوي ١٨١
- عبد الرحمن الكواكبي والمغرب العربي: تأثراً وتأثيراً/ د. جمعة شيخة ٢٠٧
- الخطاب الاجتماعي في فكر الكواكبي/ د. بسام البطوش ٢٢٢
- تعقيبات الجلسة الرابعة ٢٣٨

الجلسة الخامسة

- بين الاستبداد والأمن في الفكر السياسي للكواكبي: د. مصطفى منجود ٢٣٩
-الإصلاح السياسي والمعرفي في جهود الكواكبي وعلاقته بالدولة العثمانية: د. محمد علي الأحمد ٢٦٩
- تحليل نقدي للجهود والحركات الإصلاحية الحديثة: إبراهيم غرايبة ٢٩٠
-الإصلاح الديني والوطني في جهود الكواكبي: د. عبد العزيز عوض ٣١٢
- تعقيبات ومناقشات الجلسة الخامسة ٣١٨

الجلسة السادسة

-عبد الرحمن الكواكبي: المفكر الحاضر الغائب: أ. سعاد جروس ٣٢٧
حركة الإصلاح من النظام إلى الانتظام: مدخل معرفي قرآني:
عباس معارز ٣٤٥
- فلسفة الكواكبي التربوي في مواجهة الاستبداد/ د. محمد المنوفي ٣٧١
- تعقيبات مناقشات الجلسة السادسة ٤٠٨
- توصيات الندوة ٤١٥

مقدمة التحرير

يأتي هذا الكتاب توثيقاً لأعمال ندوة حركة الإصلاح في العصر الحديث: عبد الرحمن الكواكبي نموذجاً، التي نظمها كل من: المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومؤسسة الإمام الخوئي، ووزارة الثقافة الأردنية. وقد عقدت في الفترة ما بين ٨-١٠ شعبان ١٤٢٣هـ، الموافق ١٥-١٧ أكتوبر ٢٠٠٢م، في المركز الثقافي الملكي في عمّان. وقد جاءت هذه الندوة بمناسبة مرور مئة عام على وفاة المفكر الإصلاحي عبد الرحمن الكواكبي الذي قارع الاستبداد، وأسس لمقاومته من خلال كتبه.

ويمثل الكواكبي ظاهرة تكاد تكون فريدة في الفكر العربي الحديث، ألا وهي ظاهرة انسجام قول المفكر مع فعله، فهو يعدّ -بحق- ابناً باراً بعصره؛ إذ كان صوت الحق الذي يعلو في وجه السلطة الظالمة، ويحمل سيف الكلمة الصادقة مدافعاً عن حقوق أبناء أمته، وموقظاً لهم من غفوتهم. كان الكواكبي واحداً من تلك الأصوات المبكرة التي ارتفعت داعية إلى الإصلاح والنهوض ومقاومة الاستبداد، وقد اتصل بزعماء آخرين في هذا الاتجاه: كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وغيرهما من الداعين إلى النهوض بالشرق الإسلامي، وتخليصه من عبودية الجهل والظلم والسيطرة الأجنبية.

والكواكبي واحد من أجدادنا الأفذاذ؛ رواد النهضة الذين حاولوا النهوض بالواقع إيماناً منهم بمسؤولية العلماء في توعية الناس؛ ليقدروا على المطالبة بحقوقهم بعد أن يدركوا أنّهم بشر أحرار في صنع مصائرهم.

لم يكن الكواكبي ممن يحبون الشهرة ويلهثون سعياً وراءها؛ ذلك بأنه لم تؤرّقه الأنا، وما كان -يوماً- معنيّاً بظهورها كما يفعل بعض المثقفين اليوم فيضخمون ذواتهم، ويدورون حولها، بل كان حريصاً على إيصال كلمته الحرة إلى جميع الناس مهما كلفه ذلك من مشقة وعناء دون أن يكون معنيّاً بالشهرة؛ لذلك لم يحرص على اقتران اسمه بما يكتبه دائماً، فقد راعى ظروف

الاستبداد، فاتخذ رموزاً لاسمه، ونشر كتبه وبعض مقالاته موقّعة بها دون أن يعلن اسمه صراحة، فاتخذ أسماء مستعارة (السيد الفراتي، والرحالة ك، وع حلب، ومسلم حر الأفكار...)، ولولا صداقته لأصحاب الصحف التي كان يراسلها لما عرفنا أن هذه المقالات له!.

ونكاد لا نعثر إلا على عدد ضئيل ممن يعرفون إسهاماته في محاولة النهضة العربية تحت لواء علم عربي واحد، لا يتعارض وجوده مع رابطة تضمّ الشعوب الإسلاميّة، ولا يتنافى ودخول العرب في تحالفات مختلفة مع الآخرين. وكثير منهم لا يعرفون صيحاته التي تندد بالاستبداد، وتدعو إلى تحرير العقول من الجمود، وتطالب بضرورة الاجتهاد في الإسلام الذي وُجد من أجل سعادة الإنسان.

اختار الكواكبي الحل الإصلاحي التدريجي، كما أنه آمن بأن ما لا يتغير بالإصلاح يجب تغييره بالثورة، لكنها ثورة مرجأة لا ينبغي القيام بها قبل التأكد من إمكانيات نجاحها وإعداد الناس لها بإزالة الفوارق الدينية التي ينبغي أن لا تقف عائقاً في سبيل توحُّدهم وجمع كلمتهم؛ إذ بُنِيَتْ الأديان السماوية كلُّها على (لا إله إلا الله).

وقد دفَّعته سلطة الاستبداد ثمناً باهظاً لمواقفه الثائرة وأفكاره التنويرية التي حاول أن ينشرها، ويساعد الناس من خلالها بوسائل شتى، منها: تأليف الكتب، والكتابة الصحفية، وكتابة الشكاوى ضد المستبدين للأميين وغيرهم من المظلومين...، فعانى صنوف الآلام والاضطهاد من أجل مواقفه الصلبة، وكتاباته التي تفضح مساوئ الاستبداد، وتقرر المواجهة الواعية عبر الدراسة والتحليل، وتبرز الداء وتصف الدواء، مخاطراً في ذلك بأغلى ما يمتلكه -بحياته-، حيث حكم عليه بالإعدام في حلب، وتعرض للاغتيال، ثم قتل بالسُّم في مصر، حتى إنه ضحّى باستقراره من أجل نشر كتبه وأفكاره، وهجر موطنه وأسرته في حلب.

واستطاع الكواكبي أن يقدّم مثلاً حياً لمقاومة المستبد، حتى في رفضه الإقامة في أرضه، فقد لجأ إلى المقاومة بكل ما يستطيع من وسائل، وحين أحس بأنه يكاد يستنفد جميع هذه الوسائل، سمعناه يردد ما جاء في الأثر: "من أعان ظالماً على ظلمه، سلّطه الله عليه"؛ لذلك كانت هجرته من موطنه إحدى وسائل مقاومته ورفضه للإقامة في أرض الاستبداد؛ لأنها ستضطره إلى

السكوت على الظلم، وهذا في رأيه إعانة للمستبد، الأمر الذي يعني إخلالاً بتعاليم دينية آمن بها، إذ إن "أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"، ومن أجل كلمة الحق دفع الكواكبي حياته ثمناً لها!.

قد تختلف مع الكواكبي في بعض الآراء، لكنك حين تتأملها تحس أنها ابنة ظروف قاسية، عاش وطأتها، ويدهشنا وعيه المبكر لأهمية الموروث الديني في حياة الناس، حيث رأى ضرورة تجديده، وإنقاذه من المشعوذين ليصبح منهج حياة، يجدد على أساسه المجتمع؛ لذلك قدّم دراسة وافية لبعض الآيات القرآنية التي شوّه رجال الاستبداد الذين يدّعون التدين تفسيراتها؛ ليجعل بذلك من النصوص الدينية الأصيلة (القرآن الكريم والحديث الشريف) بداية النهضة والقضاء على الاستبداد.

واستطاع الكواكبي أن يمتلك حيوية فكرية تمثلت في قدرته على تطوير رؤيته الفكرية، شأن كل مفكر أصيل، ولعل ما يميز الكواكبي من غيره من المصلحين أنه استطاع أن يوظِّف مقدرته الأدبية وثقافته الدينية من أجل ابتكار خطاب يصل إلى العامة، فينهض بعقولهم وبوجدانهم معاً. وهكذا بدا لنا الكواكبي رجل القول والفعل، اجتمع لديه الإبداع الأدبي والإبداع الفكري، وامتزجت لديه الرؤية النظرية بالرؤية النضالية -وقلما امتزجتا في مفكِّر واحد- فقدّم لنا فكراً أصيلاً، ما زال يصلح لعصرنا؛ لأنه ابن التجربة المعيشة والجهاد اليومي، وقد شهر جميع الأسلحة التي يملكها في وجه المستبد، ونستطيع أن نعدّه بذلك أحد أبرز رواد النهضة الذين أقدموا على إحياء الفكر من أجل تجاوز عصور الانحطاط.

ورغم مرور حوالي مئة سنة على اغتيال الكواكبي نجده معاصراً لنا، ينطق بهموم زمننا، التي هي هموم زمنه، فما زالت كلمة الحق التي نطق بها، والتي خاف أن تضيع في أودية الجهل، خير معين للعرب في يقظتهم، كي يتجاوزوا تخلفهم، ويبنوا نهضتهم على أسس قويمة، وقد حاول أن يقدمها لنا عبر جميع ما كتبه، فقدم، عبر الكلمة الأدبية الرفيعة، منهجاً عملياً نهضوياً يشمل مناحي الحياة كلها (الدين، والأخلاق، والتربية، والاقتصاد، والحكم...)،

كما يشمل المناحي التطبيقية للفكر والسلوك الخاطئ الذي يتبعه بعض مثقفينا اليوم في حوارهم مع الآخرين، بإصرارهم على صحة آرائهم، وعدم سماعهم للرأي المخالف، وممالأتهم للاستبداد، ولأنها أخطاء ما زالت تعشعش في أدمغتهم كالنقش المسموم كان من الواجب التصدي لها ومحاربتها، بل وأنْ نُحصِّن منها الأجيال القادمة كما نُحصِّن أنفسنا من الداء العضال.

لذلك كله ما زال الكواكبي معاصراً لنا، رغم مرور حوالي مئة عام على استشهاده، وما زال مثلاً أعلى في التضحية والإبداع لكل المثقفين الذين يعملون من أجل تحقيق حلم النهضة، ومواجهة تسلط الاستبداد والغريب.

فكم منّا نحن -العربَ المعاصرين- يستطيع أن يحرّك الفكر من حوله بمقدار ما حرّكه الكواكبي؟!.

والمحرر إذ يشكر المؤسسات الأربع على ما تبذله من جهد مشكور مأجور في التعريف برواد حركة الإصلاح في العصر الحديث، ليجد لزاماً عليه أن يخصَّ بالشكر كلاً من: الأستاذ ماجد أبو غزالة، مدير المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن، والباحث رائد عبد الله على ما قدَّماه من مساهمة فعَّالة في إخراج أعمال الندوة في هذا الكتاب.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

المحرر

الجلسة الافتتاحية

كلمة وزارة الثقافة الأردنية

د. أحمد الطراونة(*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

يسرني أن أتقدم لكم بخالص التحية والتقدير مندوباً عن معالي وزير الثقافة الذي يبارك جمعكم، متمنياً لمداولاتكم الفلاح والسداد.

ولعل من النافع الإشارة إلى أهمية هذه الندوة التي تتصدى لموضوع هام وعالم جليل من أعلام الإصلاح في العصر الحديث. إنه شيخ المفكرين وإمام المصلحين الذي صدع بالقول الفصل ليوقظ الأمة من غفلتها، من حلب الشهباء بزغ كوكب دري ينتمي إلى كواكب زاهرة.

وسرعان ما انداح شعاعه في أرجاء الوطن الكبير، فتعرض للاستبداد، وعرّى طبائعه، ومن أم القرى التمس الهدى ومنبع النور، فكان صوته المدوي باعثاً للنهوض، وفكره النير منارات يهتدي بها أحرار الأمة.

جميل أن يستلهم أبناء الأمة مسيرة الروّاد ليكون فكرهم ومنهجهم عوناً على مواجهة الواقع الذي يضجّ بصنوف القهر والتشظي والاستلاب. والأجمل أن تتضمن فعاليات عمان هذا النهج من مراجعة الفكر ومدارسته على يدي علماء أفذاذ، وأصحاب فكر متقد.

أشكر المنظمين لهذه الندوة من المؤسسات الإسلامية والعربية، والباحثين الذين يعرضون أبحاثهم وجمهور الندوة من النخب المثقفة، سائلاً العلي القدير أن يكلل خطواتنا بالنجاح والفلاح، وأن يحفظ الأردن وديار العروبة والإسلام من كل مكروه، وأن يبقى الأردن ملتقى لأحرار الأمة ومفكريها.

(*) أمين عام وزارة الثقافة، مندوب معالي وزير الثقافة الأردني.

كلمة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

د. محمد هاشم فالوقي(*)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، ومن والاه.
أصحاب الفضيلة والسعادة، حضرات السادة والسيدات،

فيسعدني في افتتاح أعمال هذه الندوة الدولية حول المفكر والمصلح عبد الرحمن الكواكبي، أن أنقل إليكم -جميعاً- تحيات معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو- وتمنياته بنجاح أعمالكم، وتحقيق الأهداف السامية لهذه الندوة. كما يسعدني، وباسم معاليه أيضاً، أن أتوجه بأسمى عبارات التقدير والشكر إلى المملكة الأردنية الهاشمية لدعمها الموصول لجهود الإيسيسكو الثقافية والتربوبة والعلمية، ولمعالي الدكتور حيدر محمود وزير الثقافة في حكومة المملكة الأردنية الهاشمية، وأهنئ معاليه باختيار عمان عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٢م.

ولا يفوتني أن أشيد بالتعاون القائم بين المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ومؤسسة الإمام الخوئي الخيرية. ويسعدني- كذلك- تقديم وافر الشكر للأساتذة الأفاضل الذين لبوا دعوة الجهات المنظمة، وتحملوا عناء السفر؛ ليسهموا في الاحتفاء بالمفكر المصلح عبد الرحمن الكواكبي من خلال تقديم عروض وأبحاث تلقي الضوء على الجوانب المشرقة في فكره. ويسعدنا الترحاب، باسمكم جميعاً، بحفيده سعادة القاضي سعد زغلول الكواكبي الذي أبى إلا أن يشاركنا، باسم أسرة الكواكبي، ويغني الندوة بمعلومات وإضافات ترتبط بالسيرة الذاتية لجده، طيب الله ثراه.

تمر الأمة الإسلامية اليوم بمرحلة دقيقة تجعلها في أَمسِّ الحاجة إلى تضافر الجهود لإحياء ذكرى أعلامها وتجديد تراثها، والنهوض بثقافتها؛ لحماية هويتها، وإبلاغ رسالتها الحضارية، وإبراز عطاءاتها وإسهاماتها في تاريخ الحضارة الإنسانية؛ وذلك لدحض الافتراءات المسيئة إلى الإسلام القائم على الحرية والعدل والسلام والحوار.

(*) ممثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) في الندوة.

وعياً بهذه التحديات، أدرجت المنظمة الإسلامية ضمن خططها وبرامجها المتوالية منذ تأسيسها عام ١٩٨٢م، برامج وأنشطة لحماية الذاتية الثقافية الإسلامية، تعنى بالتعريف بمؤسسات الحضارة الإسلامية وثقافتها. وتولي المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، أهمية متزايدة لتجديد التراث الإسلامي وخدمة الثقافة الإسلامية، حيث يوجد ضمن برامجها برنامج خاص بالاحتفاء بكبار المفكرين المسلمين الذين لهم تأثير في مسيرة الحضارة الإسلامية.

وتختار المنظمة الإسلامية في كل سنة، علماً نابهاً ومتفرداً في فرع من فروع العلم والثقافة الإسلامية، تتقصى مدرسته الفكرية وأعلامها وإنتاجها، وتترجم البحوث والدراسات التي تكتب عنه إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية لتكون مرجعاً للباحثين المتخصصين في مختلف البلدان الإسلامية والعربية على السواء.

ومن هذا المنطلق احتفت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بأعلام الفكر الإسلامي من خلال تنظيم ندوات وحلقات دراسية بهدف إلقاء الضوء على المساهمات الفكرية والثقافية والعلمية التي قدمها أعلام الفكر الإسلامي للثقافة الإسلامية، وإبراز النماذج المتميزة من تاريخ الأمة الإسلامية؛ لتكون قدوة للأجيال الجديدة لما اضطلع به هؤلاء الأعلام من دور في إغناء النهضة العلمية والثقافية للأمة الإسلامية.

وفي هذا الإطار سبق للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالتعاون مع جهات مختلفة؛ أن احتفت بالأئمة الآتية أسماؤهم: مسلم، والغزالي، والشافعي، والطبري، والسيوطي، وبالعلماء الأعلام: الطبيب ابن الهيثم، والفقيه الفيلسوف ابن رشد، ورائد الإصلاح الحديث جمال الدين الأفغاني.

وفي الوقت الذي لا تزال الأمة الإسلامية تتطلع إلى المزيد من الجهد في الإصلاح والتغيير، وتعريف الأجيال الصاعدة بالجوانب المشرفة من تراثنا الفكري الإصلاحي العربي الإسلامي في العصر الحديث، نحتفي جميعاً -وبكل اعتزاز- بأحد رواد الفكر الإصلاحي الإسلامي العربي في العصر الحديث المفكر المصلح المجدّد عبد الرحمن الكواكبي، في الذكرى المئوية لوفاته.

لقد كان المحتفى به من صفوة أعلام الفكر العربي الإسلامي الذين كان لفكرهم المستنير تأثير بالغ في حركة النهضة العربية الإسلامية الحديثة، كما كان رائداً من رواد

حركة فكرية ثقافية إسلامية واسعة التأثير، داعية إلى التجديد الحضاري للأمة، والتعبئة العقلية والفكرية والسياسية لمواجهة التحديات المختلفة.

لذلك فإن هذه الندوة تهدف إلى ما يلي:

أولاً: بيان إسهاماته في الجهود الإصلاحية ومزاياها.

ثانياً: فهم تطور فكره الإصلاحي، ومدى اتصاله بجهود سابقيه ولاحقيه.

ثالثاً: الرسالة الحضارية لحركة الإصلاح في العصر الحديث.

رابعاً: تعريف الأجيال الجديدة بذخائر ماضيها الحافل بالأمجاد وإعادة ثقتها فيه.

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة، حضرات السادة والسيدات،

إن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة لعلى يقين من أن هذا اللقاء العلمي سيكون متميزاً وناجحاً وجديراً بأن يحظى بشرف المشاركة في احتفالات العاصمة الأردنية عمان بوصفها عاصمةً للثقافة العربية لعام ٢٠٠٢م.

ومرة أخرى أوجه الشكر الجزيل إلى كل من لبَّى دعوة الجهات المنظمة لهذه الندوة، متمنياً النجاح والتوفيق لأعمالها.

كلمة المعهد العالمي للفكر الإسلامي

د. إسحاق فرحان(*)

معالي الأستاذ حيدر محمود/ وزير الثقافة المحترم

الأستاذ الدكتور محمد هاشم الفالوقي/ ممثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة المحترم

الأستاذ جواد غانم/ ممثل مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية المحترم

الأستاذ القاضي سعد زغلول الكواكبي/ حفيد العلامة عبد الرحمن الكواكبي المحترم

أيها الباحثون الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فقد شَغلت الأمة الإسلامية فترة هامة من التاريخ الإنساني، حققت فيها إنجازات حضارية في جوانب الحياة كافة، وقدمت فيه نماذج متطورة من المثل الأخلاقية، والقيم الاجتماعية والسياسية، والمناهج العلمية، والصور الفريدة من الاستقرار والتقدم والسلام والتعايش بين الشعوب واللغات والأديان، لكنّ أمر هذه الأمة في قرونها الأخيرة آل إلى تراجع وضعف حضاري ما نزال نعاني منه حتى يومنا هذا، على الرغم من تواصل جهود الإيقاظ وتصحيح المسار، ولم يخلُ عهد من العهود من زعيم مصلح، أو عالم مجدد، أو قائد مجاهد، كما لم يخلُ من حركات إصلاحية، وتيارات نهضوية، تنوعت منطلقاتها وأساليبها.

وما تزال هذه الأمة تتطلع إلى جهود في الإصلاح والتغيير، تهدف إلى تحقيق النهوض الحضاري الذي يعيد إليها حضورها الفاعل في عالم اليوم، وقدرتها على الإسهام في الحضارة الإنسانية وترشيدها، في ضوء ما تمتلكه من هدي إلهي، وتجربة تاريخية غنية.

من هنا تبدو الحاجة ماسّة إلى دراسة الجهود الإصلاحية في تاريخنا، وفهم مناهج الإصلاح واستيعابها، واستخلاص علاقتها بظرف الزمان والمكان، وبطبيعة التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها في العصور المتلاحقة، وبيان مدى انعكاس ذلك كله على مسيرة الجهود الإصلاحية الحديثة والمعاصرة. ويأتي تنظيم هذه الندوة بمناسبة الذكرى

(*) رئيس المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب الأردن.

المئوية لوفاة عبد الرحمن الكواكبي عام ١٩٠٢م، وإسهاماً في النشاطات الثقافية التي تنظم في العاصمة الأردنية -عمان- بوصفها العاصمة الثقافية العربية لهذا العام.

أيها الباحثون الكرام، أيها الحفل الكريم، حرص المعهد العالمي للفكر الإسلامي على عقد جملة من الندوات بالتعاون مع جهات مختلفة في هذا البلد الطيب، واتجهت تلك الندوات إلى دراسة جهود عدد من المفكرين والمصلحين ومناهجهم، من أمثال: ابن رشد، والأفغاني، ومحمد رشيد رضا، وابن خلدون، وابن تيمية. والمعهد يسعى في دراسته لجهود هؤلاء المجدّدين إلى فهم الخصائص التاريخية لواقع الأمة، وانعكاسات ذلك على طبيعة جهودهم ومناهجهم في الإصلاح، عسى أن يؤدي ذلك إلى كشف المساهمة الحضارية لهذه الأمة من ناحية، وترشيد مسيرتها من ناحية أخرى.

وكلنا أمل أن تتواصل دراسة جهود هؤلاء النفر من المصلحين المجددين، وأن تتواصل جهود الإصلاح نفسها في الأمة؛ لنجد أنفسنا في نهضة متقدمة، وموقع يليق برسالتنا وحضارتنا في العالمين.

وأرجو أن يتمكن هذا الجمع الطيب المبارك من الباحثين والدارسين من تحقيق الأهداف المنشودة من هذه الندوة، والوصول إلى توصيات محددة واضحة المعالم، تقود إلى تحقيق ما نصبو إليه من وراء هذه الندوات العلمية الجادة.

بارك الله في جهودكم الخيرة، وأتمنى لكم جلسات علمية هادفة.

كلمة مؤسسة الإمام الخوئي

جواد غانم(*)

أيها السيدات والسادة الحضور الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

يسعدني أن أكون بينكم ممثلاً عن مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية في لندن، التي يسرها أن تشارك في إقامة هذه الندوة الدولية لإحياء ذكرى واحد من أعلام الفكر العربي الإسلامي، العلَّامة الكواكبي. واحتفاء باختيار عمان عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٢م، أقدم التهاني إلى المملكة الأردنية الهاشمية، وبالأخص إلى النخب والعاملين في المؤسسات الثقافية؛ فقد جاء هذا الاختيار نتيجة لجهودهم (الإخوة الأردنيين) في ميدان الثقافة العربية.

فالثقافة هي التعبير الأسمى عن هوية الأمة، والحامل الأساس لخصوصيتها الحضارية، فهل تستطيع ثقافتنا العربية الإسلامية، وهي تواجه اليوم تحديات كبيرة: كالعولمة، والإرهاب بأنواعه وأشكاله المتعددة، وصراع الحضارات، والفكر المتطرف، وتحديث المجتمع العربي الإسلامي، وغيرها من التحديات أن تجابه هذه التحديات، وتحتويها لتطرح رؤيتها تجاه القضايا المصيرية؟

إن كون عمان عاصمة لثقافتنا في هذا العام، يحمّل مفكريها وأدباءها ونخبها الثقافية بالتكامل مع شقيقاتها من العواصم العربية؛ مسؤولية مهمة، تهدف إلى وضع رؤية ثقافية جديدة تكون قادرة على احتواء التحديات التي تتعرض لها ثقافتنا العربية الإسلامية ومواجهتها.

أيها الحضور الكرام،

جرت العادة أن يقترن ذكر العلَّامة الكواكبي بمصطلح "النهضة العربية والإسلامية" التي يوصف فكرها بالنهضوي، وروادها بالنهضويين. وهنا أود التوجه إلى السادة الحضور من الجهمور المثقف والنخبوي بسؤال حول ماهية النهضة التي نتكلم عنها

(*) ممثل مؤسسة الإمام الخوئي في الندوة.

في تلك الفترة؟ وما هو التحديث الذي جرى للمجتمعات العربية حتى يستحق أن نطلق عليه مصطلح النهضة؟ وهل يمكن اعتبار التأسيس للنهضة، نهضة!!.

وبعد مرور قرن من الزمان؛ قد لا نجد في واقع مجتمعنا اليوم ما يتناسب وجهود النهضويين في التأسيس لحياة اعتقدوا أنها ستكون أفضل، فواقعنا يخبرنا بأننا ما زلنا نعتمد على الآخرين في كل شيء، حتى الماء الذي نشربه نستورده من الخارج! فأي نهضة نتكلم عنها؟ فإذا كانت هناك مصانع فهي تجميعية، وإن كانت هناك معامل فهي تنتج أسلحة قاتلة، وصيانة لمعدات عسكرية تستعمل في القمع، وفي مرحلة ما بعد النهضة العربية ما زال هناك أكثر من ٦٠٪ من سكان العالم العربي أميين. وإنّ قراءة فاحصة لأول تقرير عربي عن الموارد البشرية ينبئك بما حققه عصر النهضة وما بعده، فما هي الأسباب التي حجزت النهضة ومنعتها من بناء أمتنا، وأدت إلى الإجهاز على فرصة تحقيق تقدم حقيقي كما حصل في بلدان شهدت نهضة حقيقية نتعامل معها يومياً كاليابان وألمانيا مثلاً؟ هل هو فكر النهضة؟ أم أن هناك خللاً في البنية التحتية لمجتمعاتنا؟ أم أن السبب هو الظروف الدولية السائدة؟ أم هي سياسات الاستعمار الخارجي، فورثنا قصوراً ثقافياً أصبح سمة بارزة، من دلائله وجود الحرس الثقافي القديم، إذا جاز لي أن أصطلح ذلك، الذي لم يستوعب بعد التغيرات الكبرى في تقنيات الاتصال والمعلومات، ويمارس دوره في رقابة المنع، ومصادرة الرأي، والاستبداد الذي حاربه الكواكبي.

الصحيح أنّ مجتمعاتنا كانت في سبات ثقافي واجتماعي عميق، وعدم دراسة ظرفها الموضوعي، ومحاولة فهمه أدى إلى جعل تفكير الأفراد محصوراً في قوالب تقليد تسمى بالتجديد، يصعب الخروج منها. فوصفت الأصوات التي ظهرت إبّان فترة الأفغاني وما بعده بالنهضة، وهي في الواقع لا تعيش حالة التجديد الفكري النهضوي، المتناغمة مع متغيرات الواقع ومتطلبات العصر. ومن المؤسف أن تلك النهضة لم تدفع نحو أي تقدم صناعي أو تكنولوجي، في حين يبدو لنا أن ما حصل من تحول في المجتمعات العربية غالبه جاء بفعل الغزو الأجنبي، الذي اضطر إلى تحديث واقعنا؛ ليسهل عليه نهب ثرواتنا، وقُدّر على ثقافتنا أن تعيش ضمن بيئة خاضعة لمواصفات ومقاسات الغازي، وهذا ما حوّل الفكر والثقافة إلى

معرفة جامدة، بعيدة عن المجابهة والتحديث والتصنيع. حيث تم حشر الأفكار التنويرية التي وجدت ضمن رؤية ثابتة ذات بعد واحد.

واليوم، تبدو الحاجة ملحة إلى فكر إسلامي متنور، تتبناه مؤسسات فكرية إسلامية مستقلة، تسهم في وضع نظم دينية معرفية، تستثمر تجربة الماضي في فهم الحاضر.

وختاماً أيها السيدات والسادة الكرام

يعدُّ الاحتفاء بالعلماء والمفكرين سمة حضارية باعتبارهم خزائن لذاكرة تطور الشعوب، ويأتي إبراز دورهم في البناء المعرفي والتراث الإنساني ضرورة لتقدّم الأمة وتطوّرها، والكواكبي أحد أولئك الرواد الذين ساهموا بتحريك الثقافة العربية والإسلامية. نأمل من الباحثين أن يجعلوا من هذه الذكرى المئوية لوفاته منبراً يهدف إلى إبراز دور الفكر الإصلاحي في معالجة ما تتعرض له أمتنا من هجمة شرسة على ثقافتها، وأن تسهم في تقديم السيد الكواكبي للجيل الجديد، والتعريف بدوره ومساهمته الفعالة في تحديد أزمات الأمة، وبيان منهاج إصلاحها.

آملين للندوة كل التوفيق والنجاح، وللباحثين التقدير على مساهماتهم، وللجمهور الشكر على حضوره، وأخص بالتقدير والاحترام العاملين على إعداد الندوة.

كلمة حفيد الكواكبي

سعادة الدكتور أحمد الطراونة نائب معالي الأستاذ حيدر محمود، وزير الثقافة، راعي الحفل.

سيادة مندوبي المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ومؤسسة الإمام الخوئي الخيرية، أعمدة هذه الندوة، سيداتي وسادتي:

السلام عليكم ورحمة الله وربركاته، وبعد:

فلست أدري بأي لسان أشكر هيئاتكم وباحثيكم الساعين في إعلاء شأن الإصلاح في الإسلام والعروبة والإنسانية جمعاء، أبلسان العرب والمسلمين ودعاة الحرية في العالم أجمع وفي مجتمعنا العربي -على الأخص- الذي يستهدفه ظلم الاستبداد والسيطرة؟ أم بلسان أسرة عبد الرحمن الكواكبي التي أمثلها أنا أكبر بنيه الأحياء؟.

بل هو التاريخ الذي يُكبر فيكم هذا الاعتراف بالجميل الذي أوليتموه ذكرى عبد الرحمن الكواكبي في وقت خشي فيه الكثيرون من بلاد أخرى غير عمّان الأردن من إحياء هذه الذكرى بمثل ما أوليتم؛ خوفاً من إثارة المستبد ونقمته على العرب وأمة الإسلام في هذا الوقت العصيب الذي سمعنا فيه قرع نواقيس الحرب الصليبية التي أعلنها من أعلنها.

وقد كانت مشاركتي في ندوتكم هذه فضيلة تلقيتها، فهي من فضلكم وفضل عمّان ووزارة الثقافة فيها، وهي عاصمة ثقافة العرب الآن في عام اتفق العلماء على تسميته بعام الكواكبي، فما أجملها من مناسبة!.

حياكم الله، وحيتكم الوطنية، والإخلاص للعروبة والإسلام.

الجلسة الأولى

جوانب من السير الذاتية للكواكبي

سعد زغلول الكواكبي(*)

فقد آثرت أن تكون مشاركتي في إحياء هذه الذكرى التي تضمنت أبحاثاً مستفيضة عن الإصلاح في العصر الحديث، وتخصيص عبد الرحمن الكواكبي نموذجاً لأبحاث الإصلاح في البناء الحضاري الإنساني، أقول: آثرت أن أترك الدراسة الفكرية للسادة الباحثين، فهم أولى من الابن في الحديث عن أفكار أبيه، قاصراً بحثي على سيرته الذاتية، والكشف عن نواحٍ كانت وما تزال مجهولة التفاصيل من حياته، مع ما صار إليه أمره في مراحل حياته وبعد مماته. فأصحح كثيراً من الأخطاء والمعتقدات التي تداولها بعض الباحثين ممن اهتموا بدراسته.

وأول من أشير إليه هو تاريخ ولادته، وتاريخ وفاته. فقد تباين ثبتها لدى الكثيرين. والحقيقة هي في أن والي حلب عثمان باشا، حينما عينه رئيساً لغرفة التجارة، سجّل في قيوده أنه من مواليد (١٨٤٧م)؛ لكي يتمكن من إزالة عائق السن. وقد رأى بعض الحساد في تعيينه وهو صغير السن خروجاً عن المعتاد، فراح الأديب الكبير إسحاق يكتب في جريدته (التقدم) في ٥ تموز ١٨٨١م، هذا النص:

"توجه من مدة حضرة قدسي زاده نجيب أفندي، مأمور الإجراء، إلى دار السعادة بالرخصة، وناب عنه بهذه الخطة المهمة جناب الفتى الوطني النبيه الفاضل كواكبي زاده عبد الرحمن أفندي، فنهض بأعبائها خير نهوض، وأثبت ما عهدنا به من بداهة الخاطر، وسعة العلم بالقوانين. وكان هذا الفتى الفاضل قد انتخب عضواً دايماً لمحكمة التجارة، فزعم بعض القهقريين أنه لا يصلح لذلك من حيث أنه فتى لم يتجاوز ستاً وعشرين من السنين، وفاتهم أن القوانين لا تقضي بأن يكون عضو التجارة شيخاً ضعيفاً، بل تقتضي بأن يكون فاضلاً نزيهاً عالماً بواجباته وحقوقه.

(*) حفيد المصلح عبد الرحمن الكواكبي، سورية.

ولله درّ من قال:

كَـمْ مِـنْ كبيرٍ قليلِ العقلِ ذِيْ بَلَهٍ وكَـمْ صَغِيـرٍ كَثيرِ العِلْـمِ مُنتَخَبِ
لَيـسَ الكَبيرُ الذِي قَدْ شَابَ مَفْرِقُهُ بَلِ الكَبيرُ الذِي قَدْ شَاخَ في الأَدَبِ

فعسى أن يقبل أولو الأمر على رفع منازل النبهاء من الفتيان، فإنهم إن لم يكن من مزيّتهم غير قوة الشباب، والبعد عن فساد التقليد؛ فحسبهم ذلك فضلاً".

هذا النص يدلنا -فضلاً عن تاريخ استلامه لهاتين الوظيفتين- على أن تاريخ ولادة "الكواكبي" هو- فعلاً- ٢٣ شوال (أي ٩ تموز ١٨٥٥م) فهو لم يكد يتم السادسة والعشرين من عمره وقتئذ، كما يقول "أديب إسحاق" تماماً؛ مما يثبت أن تاريخ الوثيقة الرسمية لسيرته الذاتية الصادرة عن الوالي "عثمان باشا" التي يذكر فيها أن ولادته كانت في ٢٣ شوال ١٢٦٥هـ (أي ١١ أيلول ١٨٤٨م) كانت خطأ. والتفسير لذلك أن تكبير سنه جاء سنة ١٣٠٤هـ، أي سنة ١٨٨٧م أيام ولاية "عثمان نوري باشا"، أي بعد صدور جريدة التقدم بست سنوات، في وقت كان فيه "أديب إسحاق" موجوداً يوم ولادة "الكواكبي". وهذا التوضيح والثبت يكفيان لإزالة أي التباس ومنع كلّ خلاف حول تحديد تاريخ ولادته.

فإذا كان الكواكبي عام ١٨٨١م ميلادية في سن السادسة والعشرين، كما يعرف الكاتب، فذلك يعني أنه من مواليد سنة ١٨٥٥م. وهذا يطابق التاريخ الهجري الذي كتبه هو في دفتر صغير يحمل تواريخ ولادات أفراد أسرته، وما أثبتته المؤرخة الحلبية "عائشة الدباغ" من مشاهدتها لكتابة بخط والده على إفريز نافذة غرفة ولادته بحي الجلُّوم، وكذلك الكاتبة الإندونيسية "نور ليلى عدنان"، تنص على تاريخ ٢٣ شوال ١٢٧١م. فهو التاريخ الصحيح لولادة الكواكبي.

أما تاريخ وفاته فقد وقع الكثيرون في الخطأ بشأنه؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم التحقيق وقراءة الجرائد التي صدرت عقب وفاته في القاهرة، فلو فعلوا لتبين لهم أنه توفي ليلة الجمعة السادس من ربيع الأول ١٣٢٠هـ.

هذا أمر من الأمور التي اختلف فيها بعض الباحثين، أما الأمر الثاني فهو في جنسية الكواكبي: ومن مظاهر ضعف بعض المؤرخين أنهم قرؤوا أو سمعوا أن جدي "عبد الرحمن" بعثه أبوه إلى خالته في "أنطاكية"؛ لتقوم على تنشئته بعد وفاة أمه، فاحتضنته وثقّفته،

فاستنتجوا أنها تركية، وبالتالي تكون أمه تركية، على اعتبار أن "أنطاكية" الآن في تركيا، ولم يلتفتوا إلى أن "أنطاكية" و"الإسكندرونة" بلدان عربيان اغتصبهما الأتراك مع سائر منطقة "اللواء" بمؤامرة مع الفرنسيين سنة ١٩٣٦م؛ تطبيقاً لاتفاقية "سايكس-بيكو" المشؤومة التي قسم بها الفرنسيون والإنجليز وحدهم -سراً- بلاد العرب سنة ١٩١٦م، كما لم يلتفتوا إلى أن خالته الشريفة صفية، وأمه الشريفة عفيفة من "آل النقيب" بأنطاكية، وجدهم "أبو بكر النقيب" نقيب الأشراف، والنقيب لا يكون إلا عربياً ومن آل البيت.

وما هي إلا محاولات صهيونية يتدبرها "إيلي خيضوري"، وزوجته "سيلفيا حاييم" اليهوديان؛ ليثبتا أن انتفاضة "الكواكبي" لم تكن بداعي القومية العربية؛ وإنما هي إسلامية فحسب.

ولئن كان بعضٌ آخر من الكتبة قد قادته معرفته الجغرافية لموقع "أذربيجان وإيران" و"أردبيل"؛ إلى الظن أن أصل الأسرة كردي أو عجمي أو تركي، فما ذلك إلا لأن هؤلاء لم يدركوا أن سيلاً ودفقاً عظيماً من العرب قد تدفق إلى تلك النواحي في الماضي البعيد. فانتشار الإسلام في تلك الربوع قد أتاح للعرب الاختلاط بالعجم فتحاً أو هجرةً واسعة، كما أتاح لأهل تلك النواحي الهجرة إلى الوطن العربي. ولا يستبعد أن نسمع من أمثال هؤلاء يوماً ما أن "آل اليافي" الذين هم بين ظهرانينا الآن، من أصل يهودي، لمجرد أن "يافا" أصبحت في الخارطة التي يعتمدونها في "إسرائيل" الآن!.

وفي وثائق الأسرة، وفي كتب التاريخ المعتمدة ثبتٌ لنسبة "آل الكواكبي" إلى بيت الرسول الأعظم. ومن جدهم محمد المهدي المهاجر من الخليج العربي -هارباً من ظلم الأمويين لآل البيت- إلى خراسان، نبتت الأسرة الصفوية. وجدّه الأعلى الحلبي انتقالاً، هو برهان الدين إبراهيم الصفوي الذي ترك "رحبة ملك بن طوق" مهاجراً إلى حلب في القرن الثامن الهجري، حينما كانت قبلة المهاجرين من العلماء والمتصوفة الشرقيين، من أمثال: النسيمي والسهروردي والهروي، ومن القبائل العربية القادمة من الحجاز، أمثال: "بني زهرة" من آل البيت، و"بني العديم"، و"بني العجمي"، الذين هاجروا إلى بلاد العجم، ثم إلى حلب، فلقب جدهم بالعجمي، كما هي العادة في نسبة القادم من وطن ما إلى البلد الذي قدم منه. ولهذا كانوا يلقبون "إبراهيم الصفوي" جدَّنا الحلبَي الأعلى بـ "الأردبيلي"؛ لأنه مواليد أردبيل" التي انتقل إليها أجداده من أولاد "محمد المهدي" سالف الذكر.

وفي حلب، صاهر إبراهيم "بني زهرة" وأنجب "محمداً أبا يحيى" الذي امتهن مهنة آباء له في علم الفلك، وحمل لقب المهنة "الكواكبي". وهو لقب ما تزال تحمله أسر من الشرق

الإسلامي حتى الأندلس والمغرب العربي. وقد ابتنى محمد هذا مسجداً جامعاً بجوار داره بحي الجلوم حوالي سنة ٨١٠هـ؛ تقريباً، وما يزال قائماً معروفاً باسم "جامع أبي يحيى الكواكبي"، وعليه قبة شيّدت على نفقة "السلطان قانصوه الغوري" اعترافاً بفضل "الشاه إسماعيل الصفوي" حليفه في محاربة السلطان سليم التركي. وصاهر "بني زهرة" أسوة بأبيه. وتوفي سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م. وكان أهل حلب كلهم على المذهب الجعفري حتى معركة "مرج دابق"، ودخول السلطان سليم حلب بعد مقتل السلطان الغوري سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، إذ نشر المذهب السني في سائر بلاد الشرق الأدنى.

حتى كان الثالثُ والعشرون من شوال سنة ألف ومئتين وإحدى وسبعين، التاسع من تموز عام ألف وثمانمئة وخمسة وخمسين، يوم ولد عبد الرحمن من أبيه "البهائي أحمد" مفتي حلب، ومدرس الجامع الأموي الكبير، والمدرسة الكواكبية التي ابتناها جده أحمد سنة ١٣٠٠هـ، وأمه "الشريفة عفيفة النقيب" التي جدها "أبو بكر النقيب" نقيب أشراف حلب وأنطاكية.

توفيت أم عبد الرحمن فاحتضنته خالته "الشريفة صفية النقيب"، وأشرفت على تثقيفه وتعليمه"، وكانت -كما يذكر المؤرخون- من عالمات عصرها، كما كلفت قريبها الأستاذ نجيب النقيب بتدريسه التركية والفارسية. (وقد شاء الله أن صار هذا المعلم معلماً للخديوي إسماعيل الذي لجأ إليه الكواكبي في هروبه من الحكم التركي بعد أربعين عاماً!).

ولما اشتدّ عوده استعاده أبوه ليكمل دراسته العالية في المدرسة الكواكبية بحلب، حتى شب وراح يثقف نفسه، ويطالع جميع الكتب العلمية والشرعية والقانونية باللغات العربية والتركية والفارسية، نصاً وترجمة، إلى أن برع فيها، رغم وفاة والده، فانتبه إليه العالم المؤرخ التركي المعروف "جودت باشا" صاحب "السالنامة"، فكلفه بتحرير الجريدة شبه الرسمية "فرات"، وهو في الحادية والعشرين من عمره.

وكان -إلى جانب عمله في هذه الصحيفة- يشغل نفسه بأمور الناس، ويستمع إلى ظلاماتهم، ويدلهم على طرق الشكوى والتظلم، ويمد إليهم يد المساعدة بكل ما أوتي من قوة. وما مر على عمله في "الفرات" عام واحد حتى أنبتت في ذهنه هذه الوظيفةُ فكرةَ إنشاء جريدة حرة لا رسمية، ينشر فيها آراءه التي يجب أن تصل إلى سائر أفراد الأمة، فأنشأ جريدة أسماها "الشهباء"، كانت مقالاته فيها كالسيف المسلط على الحكام والموظفين الظالمين. فما لبثت السلطة أن عطلتها مراراً، حتى أغلقتها نهائياً. فاستعاض عنها -تحت اسم مستعار أيضاً لصاحب الرخصة-

جريدة سمّاها "اعتدال"، لم يكن حظها إلا كحظ "الشهباء". وهكذا راح الكواكبي يمارس النضال بشتى أشكاله السلمية، وقد توسعت مداركه وآفاقه العربية، وصار يحلم بالقومية العربية، ويطالب بالخلافة للعرب وحدهم، وفي مكة المكرمة.

تنقل في وظائف عديدة، ونال مراكز كبرى كرئاسة البلدية، وهو أول عربي يراس بلدية حلب، ورئاسة غرفة التجارة، والمصرف الزراعين ولجان فحص المحامين وكتابة العدل. فكان يتصدى في كل وظائفه إلى ظلم الحكام، فلا يلبثون أن يعزلوه عن وظيفته، حتى إذا احتاجوا إلى من يشغل وظيفة أهم لم يجدوا سواه، فيعيد الكرة مبتدئاً بمحاربتهم، حتى وصل الأمر بالولاة إلى اتهامه بجناية سياسية أدخل لأجلها السجن مع بعض وجهاء حلب. وقامت على إثر ذلك أول مظاهرة نسائية ضد السلطة في تاريخ العرب والإسلام يوم الثلاثاء ١٠ ربيع الأول ١٣٠٤هـ؛ حدثتني عنها عمتي، ووصلت أخبارها إلى إستنبول، وضج الشعب على إثرها، فأفرج عنه، بينما توفي زميله "جبرائيل الدلَّال" في السجن قبل الإفراج. وقد قرأت في دفتر مذكراته بيتين من الشعر حول دخوله السجن، هما:

قالوا: حُبستَ؟! فقلت: ليس بضائري حبسي، وأيُّ مهندٍ لا يُغْمَدُ؟!
والحبس ما لم تَغْشَهُ لدنيّةٍ شنعاءَ، نِعْمَ المنْزِلُ المتودِّدُ

ثم اتهم بجنايات أخرى مماثلة حكم عليه من أجلها بالإعدام، فطعن على الحكم ورد القضاة في حلب، إذ أثبت رشوتهم من الوالي "عارف باشا"، فنقلت محاكمته إلى بيروت، وهناك قضي ببراءته، وعاد إلى حلب فاستقبل استقبالاً شعبياً لا مثيل له، شارك فيه "أبو الهدى الصيادي" يد السلطان عبد الحميد، حيث بادره بالترحيب باسم "ابن العم" هادفاً من سماع الناس هذه الكلمة، وسكوت الكواكبي عنها إلى موافقته على انتسابه إلى آل البيت، ولكن الكواكبي أدرك بغيته فوراً لئلا يفسر سكوته عنها بالقبول بهذا الانتساب، والناس يعرفون أن آل الكواكبي هم آل البيت ونقباء الأشراف في حلب من مئات السنين، فإذا به يجيبه على مسمع من الناس: "وعليك السلام يا أبا الهدى أفندي، ولكن "ابن العم" هذه من أين أتيت بها؟". فراح الصيادي يكيد له أشد الكيد، ووصل به الأمر على أن راحت السلطة تحرض العصابات على إحراق مزرعته، ثم تصادر أملاكه، فضلاً عن تدبير مؤامرة لقتله طعناً بالسكين قرب داره. فضاق ذرعاً، وعلم بأمره قريبه شيخ الإسلام "نجم الدين أفندي الكواكبي" -على ما يذكر

المؤرخ الغزّي- فيستدعيه إلى إستنبول، وهناك يجمعه مع أبي الهدى، ويحاول إصلاح ذات البين بينه وبين السلطان عبد الحميد. ولكن الكواكبي لم يكن إلا لينتهز فرصة إقامته في إستنبول لدراسة أحوال السلطان وأبي الهدى، والاستبداد الحميدي، وسيطرة الأتراك على العرب، وسرقة كنوز البلاد العربية والإسلامية، وإهدائها إلى السلطان وولاته، مما نشاهده الآن في قصور إستنبول.

وعاد إلى حلب، وانكب على تأليف كتابيه: "أم القرى"، و"طبائع الاستبداد". حتى إذا أتم كتابة مسوداتهما، خرج من حلب بحجة أنه ذاهب إلى إستنبول ليستبدل وظيفة أهم من وظيفة قاضي "راشيًّا". ولكنه هرب إلى مصر، ونشر كتابيه هناك. وقد حمل "أم القرى" اسم المؤلف على أنه "السيد الفراتي" في حين حمل فيه -بعدئذ- كتاب "طبائع الاستبداد" اسم المؤلف على أنه "الرحالة ك". وسرعان ما وصلا إلى إستنبول وحلب ودمشق وإيران التي تُرجما فيها إلى الفارسية. وقد قرأنا على الصفحة الأولى من الترجمة الفارسية اسم المترجم على أنه "عبد الحسين"، وأن الترجمة جاءت امتثالاً لأمر مطاع! وتاريخها شهر شعبان، سنة ١٣٢٥هـ، أي بعد وفاته بأقل من خمس سنوات.

والغريب في الأمر أن المترجم لم يذكر اسم أبيه أو كنيته أو اسم أسرته، كما لم يذكر اسم صاحب الأمر المطاع الذي امتثل لأمره فترجم "طبائع الاستبداد". كما أن المترجم لم يذكر اسم صاحب هذا الكتاب المترجَم. وحقّ له ذلك؛ لأن الكتاب كان موسوماً باسم المؤلف "الرحالة ك". وقد تبين لنا أن ترجمة كتاب "طبائع الاستبداد" هذه؛ كانت بإشارة مرجع ديني كبير.

وفي خلال رحلته هذه التي وصف فيها "مؤتمر أم القرى" موضوع كتابه الأول، ألجأته العسرة إلى الرجوع إلى بلده سراً. وفي حلب وجد أن أملاكه كلها قد صودرت، وأنه مطلوب للسلطة، وقد اكتشفتُ ذلك من صك كاتب العدل، الذي نص على رهن داره التي كانت باسم زوجته بمبلغ خمس مئة ليرة ذهبية خرج بها سراً، عائداً إلى القاهرة.

وقد حدثني المرحوم "محمد أبو البحرين" والد زميلي القاضي؛ أن عقوبة مقتني كتابه "أم القرى" كانت جنائية، وعقوبة اقتناء كتاب "طبائع الاستبداد" كانت الإعدام. ومع ذلك فقد انتشرا بين الناشئة دون وجل، إلا ما أصاب أديبين لبنانيين قضي عليهما بالأشغال الشاقة، هما: "نخلة قلفاط"، وشريكه "سليم الميداني" صاحبَيْ المكتبة الكلية ببيروت، إذ عثر البوليس في مكتبهما على نسخة من "أم القرى" لم تكن مباعة لأحد. وقد توفي المرحوم "نخلة" في سجنه، على ما ذكرت جريدة "المقطم" القاهرية، سنة ١٩٠٥م. في حين كان يدفع

وكلاء الصيادي ليرة عثمانية ذهباً لمن يتخلى لهم عن كتاب عبد الله النديم "المسامير في أبي الهدى الصيادي"، فإذا بكتاب النديم يفقد نهائياً من أسواق العالم العربي، بيما يبقى كتابا الكواكبي حتى اليوم رغم عقوبة الإعدام. ومن الوثائق الهامة التي صودرت -وهي الآن في إستنبول- رسالة (لينين) إلى الكواكبي التي قرأها في المأبن السلطاني الزعيم الوطني المرحوم إحسان الجابري رئيس اتحاد الدول العربية، وأوصاني مرات عدة بالسعي للكشف عنها.

وإلى جانب هذين الكتابين الباقيين كانت هناك كتب أخرى ضاعت بالمصادرة، وأرسلت مع "عبد القادر القباني" لطبعها، فأنفذها إلى السلطان عبد الحميد مع أوراق كثيرة. والكتب التي عرفناها هي:

١. "صحائف قريش"، الذي أشار إليه الكواكبي في مقدمة "أم القرى" ذاكراً أنه سيصدر، وسيكون له شأن كبير في النهضة الإسلامية العلمية والأخلاقية.
٢. "العظمة لله"، الذي يتحدث فيه عن عبادة الشخصية وسيئاتها، والعبودية ورفضها إلا لله تعالى، منتقداً أحوال السلطان العثماني والحكام الأتراك والمنافقين لهم. وقد شاهد المرحوم "محمد كرد علي" هذا الكتاب، وأتى على ذكره في "خطط الشام".
٣. "كتاب الأنساب"، فقد وجدتُ رسالة من عمي الطبيب العسكري "أسعد" إلى أخيه الطبيب العسكري "رشيد" مرسلة إلى "طرابلس الغرب" في نهاية الحرب الكونية الأولى، توصية له بأن يمر على "الشيخ رشيد رضا"؛ ليستعيد منه كتاب "الأنساب" الذي كان والده قد سلمه إياه ليطبعه في "المنار"، ولا نعرف مصير هذا الكتاب ولا جواب هذه الرسالة؛ ذلك لأنني اكتشفتها بين أوراق عمي التي أعطتني إياها عمتي بعد وفاته بمدة بعيدة.
٤. "أحسن ما كان في "أسباب العمران"، وفيه تكلم عن عمران المدن بمعنى الحضارة والرقي. وقد أشار إليه "عبد المسيح الأنطاكي" ووعد بنشره، وهو مفقود كذلك.
٥. "ماذا أصابنا؟ وكيف السلامة؟"، وقد ذكر هذا "محمد رشيد رضا" في المنار سنة ١٩٠٥م. وقد وعد الأنطاكي بنشره، إلا أن الأنطاكي -أيضاً- تعرض لملاحقة الخديوي، وهجر مصر إلى أمريكا، ولا نعلم ماذا حل بالكتابين.
٦. "تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام"، وهذا مبحث ذو أهمية خاصة خفية عن الناس، تتعلق بأسرتنا الكواكبية، وبفتاة زنجية من "سنّارة" بالسودان المصري سابقاً، خطفت من قبل أعداء قبيلتها، وبيعت إلى تجار الرقيق في جدة، واشتراها حاج جاء بها إلى حلب

وعذبها، فشكاه الجيران إلى الكواكبي فأنّبه، فلم يرتدع، فشكوه ثانية، فجاء إليه مؤنباً ثانية وطلب منه تحريرها فامتنع بحجة دفعه ثلاثمئة ليرة عثمانية ذهباً، فافتداها منه جدي، وأخرجها من بيته، وخيّرها في الذهاب إلى حيث تريد فاشتكت وتوسلت بأن ليس لها أهل هنا، وحكت له قصة خطفها من غابة سنارة، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى أفراد أسرته على أنها أختهم الجديدة "سعيدة" (كما سمّاها تجار الرقيق بجدة). واعداً إياها بإعادتها إلى "سنّارة"، وكان قد أزمع على الهجرة إلى مصر مكلفاً زوجته باصطحابها حينما يبعث بطلبها مع الأسرة برسالة سرية. ولكنه استشهد في مصر غيلة، وبقيت الفتاة في البيت لتربي والدي وأخته، يتيمي الأب والأم.

سردت لكم هذه القصة -اضطراراً- لأدلكم على سبب كتابة الكواكبي مبحث تجارة الرقيق -حسب اعتقادي- الذي جمع مواده من رحلته الكبرى التي كشف فيها أسرار تجارة الرقيق في إفريقية والبحر الأحمر وجدة بتجرد ونزاهة، مما أشار إليه -أيضاً- في "طبائع الاستبداد". ولعله تمكن من الوصول إلى معرفة أهل متبناته "حجاب النور"؛ لأنه يعرف علائم خدها المشرّط بإشارات إلى قبيلتها في "سنارة" التي لا تعرف اسمها. وقد عثر الدكتور محمد عمارة على مبحث الرقيق، ونشره في "الأعمال الكاملة للكواكبي".

تلك هي كتبه. وأما مقالاته فقد اكتشف منها الكثير -ولا يزال يكتشف- على يد الصحافي "جان داية"، كما أشارت إلى بعضها الكاتبة الأندونيسية "نور ليلى عدنان"؛ مما قرأته مكتوباً في جريدة "القاهرة" سنة ١٩٠٣م بعد وفاته بشهور، مع تعليق لـ "بشير اليوسف"، ووعْدٍ بأنه سينشر للكواكبي مؤلفات أخرى غير "أم القرى" و"طبائع الاستبداد"، تلقّاها من صديق قريب للكواكبي نقلها عنه وأملاها عليه. وتؤكد هذه الأديبة أن الصديق هو الأديب العربي الكبير "عبد المسيح الأنطاكي" الذي عرف بلقب "نديم الكواكبي" تلميذه في حلب قبل الهجرة، ونديمه ورفيقه في المهجر.

وقد تحدث الأديب "يوسف يزبك" في الخمسينيات، من راديو بيروت، فسمعنا منه كيف أن الشباب المثقف في بيروت كانوا يرسلون أولادهم الصغار، وهو منهم، إلى الفرّان، فيقول له: "أعطني العصا لأبي" فيدخله إلى طرف لديه، ويخرج كتاب "طبائع الاستبداد" فيخفيه في عبه ويعطيه عصا يخرج بها إلى أبيه!.

نعم، ضاقت سبل العيش في وجه الكواكبي، وأدرك أنه لن يتمكن في هذا البلد السجين من نشر أفكاره التي تجاوزت حدود الدفاع عن المواطنين الحلبيين إلى نطاق العالم الإسلامي والعربي قاطبة، وأن ذلك لن يتم له إلا في مصر التي لجأ إليها كثير من الأحرار، وهو يعلم أن الخديوي إسماعيل زميل له في الدراسة على معلمه نجيب النقيب، وهكذا فقد رهن داره العظيمة التي أشرف على بنائها، لقاء خمسمئة ليرة عثمانية ذهباً لدى أحمد آغا هنانو، وانتقلت أسرته إلى شقة في دار الشيخ عبد الحميد الجابري (حيث تعرف والدي بعد بلوغه على والدتي!) كما رهن أرض بستان "الكتاب" (مكان بناء المجلس البلدي العتيد بحلب الآن) لقاء مبلغ مماثل لدى السيد جرجي خياط، وهرب تاركاً أسرته في حلب بعد أيام من الرهنين إلى مصر.

وفي مصر اكتشف الخديوي وجوده بعد أن اطلع على مقالاته وكتاب "أم القرى"، فأنفذ من فتش عنه ودعاه إلى مقابلته، فأعجب به ومنحه الحماية.

ومن القاهرة خرج سائحاً في البلاد الإفريقية الشرقية، ثم الهند وجنوبي آسيا، وعاد إلى الجزيرة العربية، ومن الحجاز عبر الصحراء دخل بلاد الخليج العربي، واجتمع بشيوخ وأمراء القبائل العربية، ودرس إمكاناتهم المعيشية، واستعدادهم الحربي، وبث فيهم روح المقاومة والانتصار للقومية العربية.

وبعد أن وصل في رحلته إلى حدود الصين وروسيا، عاد إلى مصر حاملاً معه أسرار ومعلومات رحلته، حتى إنه جلب معه نماذج من معادن الجزيرة العربية، ومنها قوارير تحوي "زيت القار" (وهو النفط) اكتشفه بمناسبة عبوره صحراء الربع الخالي نحو مشيخات وإمارات الخليج العربي، كأول عابر لها على ظهور الجمال من عرب وغيرهم من خارج الجزيرة العربية ليقدمها للعلماء لتحليلها، على ما ذكر "محمد رشيد رضا". وفي القاهرة علم بالزيارة التي قام بها الخديوي إلى السلطان عبد الحميد والصلح الذي تم بينهما. وكان ذلك حديث مجالسه مع كبار شخصيات مصر من "محمد رشيد رضا" و"محمد عبده" و"علي يوسف" و"الثعالبي" والشاميين مثل "محمد كرد علي" و"عبد المسيح الأنطاكي" وسواهم. وأدرك أن الخديوي قد عاف ناحيته وقلب له ظهر المجن. وبالفعل فقد استدعاه الخديوي لمقابلته في قصره بالإسكندرية، فشاور الرفاق

فأشاروا بالاستماع إليه، فنزل عند رأيهم ليضع حدّاً لمظانه، وقابله بالفعل في الإسكندرية فإذا بالخديوي يطلب منه أن يرافقه في رحلته القادمة إلى إستنبول لمقابلة السلطان الأحمر، ومدّ يد المصالحة إليه ليعفو عنه، فرفض وخرج غاضباً. ووصل إلى القاهرة مساء. وفي المقهى راح يحدث رفاقه عما جرى.

وقد أدركه التعب من وعثاء السفر، وشعر بألم في أمعائه، فطلب من صديقه الحلبي "عبد القادر الدباغ" أن يرافقه إلى بيته مع ابنه كاظم، فكان ذلك. وما إن اختلى بابنه كاظم حتى اشتد ألمه وراح يتلوى ويطلب من ابنه أن يخبر عبد القادر ليستدعي طبيباً، فخرج ابنه لاحقاً بعبد القادر الدباغ (والد المؤرخة الحلبية عائشة الدباغ) الذي لم يكد يغلق بابه عليه، ومستنجداً به، فهرع معه إلى أبيه، فإذا هو يقول له: "لقد سمّموني يا عبد القادر". ويسلم الروح بين يديه. وكان ذلك ليلة السادس من ربيع الأول سنة ألف وثلاثمئة وعشرين هجرية، الثالث عشر من حزيران سنة ألف وتسعمئة واثنتين ميلادية.

ورنّ جرس الهاتف في الساعة الثانية صباحاً في مكتب جريدة المقطم لدى "إبراهيم سليم النجار"، وانتشر الخبر كالصاعقة في أنحاء القاهرة، وأرسل الخديوي طبيبه ليفحصه ويقدم تقريره، وأمر بالإنفاق من ماله الخاص على جنازته.

وأبّنه كبار الأدباء والشعراء، ومنهم حافظ إبراهيم الذي نقشت أبيات رثائه على قبره، وهي:

هُنَا رَجُلُ الدُّنْيَا، هُنَا مَهْبطُ التُّقَى هُنَا خَيْرُ مَظْلُومٍ، هُنَا خَيْرُ كَاتِبِ
قِفُوا واقرؤوا أَمَّ الكتابِ وسلّمُوْا عَلَيْهِ، فَهَذَا القَبْرُ قبرُ الكَواكِبي

ومصطفى صادق الرافعي وسواهم.

تلكم هي جوانب خافية من حياة جدّي عبد الرحمن الكواكبي لم يذكر المؤرخون إلا ما اشتهر منها، إلا أنني أرى لزاماً عليّ -هذا اليوم- أن أصرح لكم بأن الكواكبي قد اغتيل ثلاث مرات:

الأولى: في حادثة تسميمه بفنجان قهوة. والثانية: حصلت قبل سنة من الآن، إذ راح لصوص المقابر في قرافة باب الوزير بالقاهرة يهدمون ضريحه؛ لاستبدال قبور أخرى من قبره. وقد شاهدت بعثة مؤسسة السينما السورية الضريح، وهو مشرف على الاندراس، فتوقفت عن تصويره

حركة الإصلاح في العصر الحديث
عبدالرحمن الكواكبي نموذجاً

هذا الكتاب

كوكب مضيء في فضاء المفكرين المصلحين... استطاع أن يوظف مقدرته الأدبية وثقافته الدينية من أجل ابتكار خطاب يصل إلى العامة، فينهض بعقولهم ووجدانهم معاً.. رجل القول والفعل، اجتمع لديه الإبداع الأدبي بالإبداع الفكري، وامتزجت لديه الرؤية النظرية بالرؤية النضالية، فقدم لنا فكراً أصيلاً، مازال يصلح لعصرنا؛ لأنه ابن التجربة المعيشة والجهاد اليومي، إذ شهر جميع الأسلحة التي يملكها في وجه المستبد.

وكثير منا اليوم لا يعرفون صيحات عبد الرحمن الكواكبي التي تندد بالاستبداد، وتدعو إلى تحرير العقول من الجمود، وتطالب بضرورة الاجتهاد في الإسلام الذي وجد من أجل سعادة الإنسان.

والمستعرض للبحوث التي قدمت في هذا الكتاب يجد عبد الرحمن الكواكبي مثلاً أعلى في التضحية والإبداع لكل المثقفين الذين يعملون لتحقيق حلم النهضة ومواجهة تسلط الاستبداد والغريب.

دار الرازي
للطباعة والنشر والتوزيع
العبدلي - تلفاكس ٤٦٤٦١١٦
ص.ب ٩٢٧٦٠١ - عمان ١١١٩٠ الأردن

www.al-razi.net
E-mail.alrazi003@yahoo.com